وهكذا انتهى الربيع

قصة عراقية

بقلم سميرة خضر السبتي

بدأت تباشير الربيع مشرقة ضاحكة في وجه الطبيعة .. وداعبت النفوس موجة من الفرح والسرور علت وجوهها البشرة .. وعزف الامل لحنه الاول على قيثارة الربيع .. فنشدت النفوس بعضها لبعض .. وغنى الطير وهزج العندليب مستبشرا بالربيع حيث أريجه يملأ الفضاء .. وهناك فوق السهول الخضراء تعرقت السعادة ولاح الامل .. وها هم غداة الربيع يروحون ويجيئون ويرقصون للالحان التي تسكبها الاغصان .. وها قد لاح الربيع بثوبه الاخضر الموشى بالسنفسن والياسمين وقد توجه الله بتاج الحكمة والطهر والبراءة .. وتلك السماء الزرقاء التي ما تبسمت الا لهذا الموسم الذي يدر على العالمين السعادة ويبشرهم بالامل والنجاح والتفاؤل وهناك حيث الكل يبيع نفسه لضمير الربيع .. والكل يحب ويشدو بلحن أمل الغد .

وهناك مع رقصة الربيع على هيئ الغدير . تعيش لقصة الربيع .. وورود اليانعة المتفتحة من أكمامها لتزين حديقة قصر الاستاذ (المؤلف الواقعي) وهو حالي كعادته ويكتب قصة ليقدمها قريبا لجمهوره المحب لمؤلفاته .

وهاهو الربيع يختفي بين طيات ثوبه مفاجأة لهذه الفتاة التي تمر من امام دار (المؤلف الكبير) .. وكانت كلما تمر تلقي نظرة اعجاب واكبار لهذه القصص .

كانت الفتاة في ربيع عمرها الحادي والعشرين ضاحكة بالرغم من وجودها في كلية الحقوق لان المعروف عن طلاب كلية الحقوق لايقف لهم لسان ولايصمت عن الحق حتى ياخذ حقه المطلوم ويأخذ بيده حيث نور الحق والعدالة .. وكانت هي تأخذ الحق بصمتها وكان وحيا يحل مشكلة موكلها عند محاميه منصة القضاء .. ولكنها كانت عنيدة بل منكرة عمياء عن الحقائق التي تحاربها وتجهل وجودها ... كانت تثور لاقل سبب تافه وصغائر هذه نتجت بسبب حادثة حدثت لها في صغرها وقد اثرت عليها ..

كانت وحيدة أبيها بعد وفاة والدتها الحنون .. وكانت الشمعة الوحيدة

التي استقبل بها سامي نور الحياة بعد وفاة زوجته الشابة الوفية .

وهناك وعند بداية الربيع حيث ربيع الحب والسعادة يصعد من أعماق قلوب البشر .. واما الكل فسجد لحكم القدر .

جاء صادق الى ابيها وكان شابا جميلا . دقيق الحس وكان ابن جارهم القديم الطيب .. كان صادق جامحا عنيفا طموحا . شهما . نبيلا . وكان يعبر عن حيوية الحياة وجمالها بمرحه وابتسامته الصادقة . وهمه الوحيد أن يبني مستقبله وسعادته كالبنيان المرصوص . لاترهبه عواصف الايام ومذابات الحياة .. نال صادق شهادة التخرج من كلية العلوم واخذ يعد نفسه ليتقدم على دراسة الادب وهمسة في نفسه أو طموحا بداخله .. وهنا رحب به سامي لجيرته القديمة ولانه ابن الشيخ مصطفى .. وهنا فتح سجل الذكريات ليذكروا صحبة الجيرة ولبثوا بذكرياتهم بعضا من الساعات .. واخذ صادق يتردد على دار سامي .

وفي احدى الامسيات زار صادق سامي فرحب به كعادته منذ معرفتهما .. ثم دارت احاديث شتى بينهم ثم قال صادق .

والله ياعم انك رجل طيب وابني عرفت عن حبائكم كل شيء واتصلت بمعارفكم واخبروني بانكم من عائلة طيبة وشريفة بالرغم مما كان والذي يقص على ليلكم وطيبتكم .

ماذا تقصد ..!!

اقصد ياابني اتمنى ان اتقرب لعائلتكم بطلب يد حنان .. ان وافقت ..

مبروك ياصادق فلها منذ اللحظة الاولى لك .. ولي الشرف اذ أنا انتسبت الى عائلة الشيخ والدك .

ثم انتهت الزيارة وصادق لاتسعه الدنيا من الفرح .

وهنا تبدأ قصة هذه الفتاة حيث كان صادق خطيب حنان يتردد على دارهم ويخرج مع حنان باستمرار .. وكان صادق طموحا حتى في الحب .. وفي أحد الايام .. اشار عقرب الساعة الى العاشرة والنصف ولم تأت حنان فاخذ ابيها يجول ويصول في الغرفة ذهابا ومجيئا .. وهو صامت وكأنه يحرك كلمة ليوجهه الى حنان على تأخرها هذا وهو يعد الدقائق تلو الدقائق .. وفي تلك اللحظة طرقت الباب فتح الباب فاذا بحنان .. سلمت عليه ثم قال لها بهدوء .. بكدره غضب صامت .

ـ حنان بكلمك .. أبوك الشخص الذي يرعاك ويحبك الحب الابوي من بعد حب الله لعباده .. رجائي لاتتأخري ثانية ولاتكثري من الخروج مع صادق .. فان كلام الناس واشاعاتهم باحسان .. أتسمعيها .

ـ ولكن ياابي مالي .. والناس .. ان اشاعاتهم لاتنتهي وكلامهم كثير وعلينا أن نقضي على هذه الاشاعات .. الا يؤمنون بالواقع .. الرتكب جريمة اذا

خرجت مع خطيبي .. اليس هو خطيبي بالبي ؟

نعم .. ولكن .

ولكن ماذا .. (اشتد غضبها وكان هذا التعرض يحدث لاول مرة تتعرض فيه تصرفاتها من قبل أبيها) .

والآن عرفت لماذا تتعرض تصرفاتي وتصرفي .. ومن يروح الاشـــاعات حولي .

اليس هو بعينه بالبي ؟

وانتفض في جلسته ووجهه ترتسم عليه آيات الغضب .. وقال من هو؟؟

ـ انه .. انه فاضل صديقك .

وهنا اطرق وجهه وصدره عن نظراتها .. لانه يعرف بان اكثر من هذا الكلام يغمي عليها بسببه ويجعلها تتعرض وتوسد الفراش .. ولذلك انسحب جانبا ليجلس على الكرسي وليهدأ من غضبها . ولكنها قالت

الم تعرفه ؟ .. اليس هو بعينه الذي خطبني ورفضه واشاع عني بانني ساذل ورفض هو الخطبة .. وبعد كل هذا تسمع حديثه وتصدق كلامه واحد الغضب والحنق يثور في نفسه ولكن لايستطيع اظهاره .. ثم قال :

ولكن يا حنان انه صديقي ولا يجوز ان تتكلمي عليه كان زمان هكذا ولكنه الآن فاضل ثان غير ما كان واصبحت له زوجة وأولاد .

اما حنان فلم يهدأ روعها وبدأت تلعن فاضل الشخص الذي كرهته .

ـ كفى .. كفى يا حنان فانك قد ارتكبت اثما ومعصية نحو الرجل الذي رعاك واحبك .

ان هذه سنة الله .

ولكن الله وهب لنا العقل لنفكر فيما نعمل .. والعين لننظر ونتجنب الوقوع في الخطأ ، وهب لنا المنطق لندافع به عن انفسنا .

انه خطيبي بالبي عليتكلموا مايشاءون كفى ياحنان انك تقللين من شأني .

ـ وذهب مسرعا الى غرفته وكأنه لايطيق رؤية ابنته وهي تقف في وجهه وتلعن وتتحدث باسلوبها التهكمي .

سافر صادق الى أهله ليمكث عندهم اسبوعين ، وكثر خروج حنان بمفردها لانها ضاقت ذرعا بالعيش مع أبيها في البيت وانها اعتادت الخروج مع خطيبها صادق . وحجتها الوحيدة لأبيها هو انها محظوظة .. وأحد والدها بمنعها من الخروج بمفردها باسلوب.

وفي احد الايام والوقت عصرا وحنان في غرفتها تقف أمام المرآة لتسرح شعرها وتتزين ... ووالدها في غرفة المكتبة يطالع كتابا للمتنبي وبعد مدة خمس دقائق سمع حركة على الدرج مرفع هيفيه وندى حنان ..

حنان .

نعم .

تعالى .

وفي تلك اللحظة احست حنان بشيء غامض يرتقيها فسارت بخطوات ثقيلة ، وجالت ببصرها نحو صوره

والدتها .. فنظرت الى ساعتها وكانت عقاربها قد توقفت .. وكان في أعماقها

طرقت الباب ودخلت .

ـ حنان .. تعالى لأكلمك .. الى أين انت ذاهبة ..!؟

ـ الى صديقتي ... هل من عارض يمنع خروجي .. فانني قد توقعت معارضتك .

ـ ولكن أخبرك .. بألا تذهبي .

ـ لماذا ؟

ـ ان خروجك بمفردك وبدون صادق خطئي اشك في تصرفاتك .

ـ وماذا فيها اذا خرجت بمفردي ؟

ـ أقول لك مرة ثانية لا تذهبي ولا تخرجي من الآن فصاعدا الى أن يأتي خطيبك ، وانني سأخبره بذلك ان لم تكفي عن أعمالك السيئة هذه .

ـ أخروج الفتاة بمفردها عمل سيىء؟

ـ اذهب بدون خطيبك .. وعليك أن تقللي من زياراتك لصديقاتك .

ـ هه ... خطيبي ...من قال لك توافق على خطبتي ؟.. انني لا احب صادق .

ـ لماذا تقولين ؟

ـ قلت لا احب صادق .

ـ عال ... والله عال ... ولماذا تحبين اذن ؟ الفتيات الفاضلات العاشقات يحق أوليائهن ؟

ـ أرجوك .. اذا كنت تتعدى على صلاحياتي .. فانني لست ..

ـ لست ماذا ؟..!؟

ـ لست ابنتك .. لست ابنتك ..

ـ بابا ... بابا .

ولكنه ليس بعجيب لانه وقع مغشيا عليه على الارض . لانه اصبح لايطيق رؤية ابنته ... تمرد عليه التي نفثت من روحه ... تركتها لتعوض أبيهما الحنان الذي افتقده والحب الذي ضاع ودفن .. اصبحت ابنته نمرا من انوثة .

ومرت الايام وسامي لايستطيع حراكا فقد أصبح مشلولا حتى لسانه وبقيت حنان وحيدة تعيس مع عذاب الضمير ومأساوة الحياة .

***

وفي احد الايام جاء صادق الى دار خطيبته حنان وعندما دخل الى الصالون لم تستقبله كعادته ثم قال :

ـ حنان .. ما بك .. ما هذا الجفاء والبرود .... اين والدك ؟!

ـ لا تسأل عني وعن والدي .. انني اكرهك ... أكرهك .

ـ ولكن .. يستحيل .. انني لم أتعود سماع هذا من فمك ابدا

ـ ولكن حان الوقت الآن لتسمعه .

ـ مستحيل .. مستحيل .. هذا من وراء قلبك

ـ بل من كل قلبي .

ـ اذن فوفي اين والدك ...!؟

ـ مات ...!

ـ مات ... كيف ومتى ولم لاترسل لي برقية ؟..

ووقف صادق صامتا ... وساد صمت ثقيل .. ثم جر قدماه نحو الباب وهو حائر ... اماله التي بناها للحب تحطمت .. سعادته ... اهدافه هي السعادة لعبة في يد طفل متى يريد ان يحطمها ، يحطمها ... واحس بان يدا من صخر هوت على قلبه فحطمته ... اين حنان التي ملكت مشاعره ... اين حنان التي ساعدته في بناء قصر احلامه وامانيه ؟ ... اكان حلم ليل هذا ...

واملا امكم .. ثم أخذ يحرف في عبراته المهراقة من أثر الخيبة التي كانت تترقبه هذا اليوم واقترب من رؤية سعادته وهي تنهار في لحظة مدبرة ... وهكذا تحطمت صخرة الحب لاصطدامها بحبه وخابت احلام صادق الذي لم يحب طول حياته الا في تلك اللحظة .. وساوره الشك بانها كانت تخدعه ولكن حبه لها ملأ قلبه خوفا لفقدانها ..

وكان قابعا بين روايا الأيام وثنايا الساعات ينتظر ماذا سيحدث له ...

اما حنان فقد ظلت تتقلب في موجة من الخواطر المديدة والهواجس المخيفة ، وأخذت تفكر ليل نهار بانيها الذي حنت عليه وتحميها الذي قست عليه وكدت لتعلو بكبريائها وسعادتها التي حطمتها رشدها الذي ذوى في عيضة عين كما يذوى الورد في الخريف ... وفي تلك اللحظة تساءلت عن كبريائها وعنادها الذي اعماها طول شبابها وسارت في طريقها الى السكلية ... وكان الربيع يودع أصحابه وأحبابه ... مرت من امام دار (الاستاذ الوقور) ولكن لم تنظر اليه كعادتها وانما دخلت داره .. وراته جالسا كعادته بين أوراقه واقلامه ... فحيته وقالت :

ـ استاذي .. ان مجيئي اليك غريب، فعسى الا تسيء مني أبدا .

ـ أبدا يا ابنتي فاني أفتح بيتي لمن يدخله غريب أم قريب ..

ـ بارك الله فيك .

ـ اني جئت اليك لترشدني الى الطريق السوي وتحل مشكلتي التي اوقعتني في شرك من الظلام .

ـ اني بحانبك يا ابنتي ... فاني بحانب كل شخص يطلب معونة .

ـ بارك الله فيك .

وفي تلك اللحظة احد الأمل يتقضى لمستقبل حنان ... واحد الحب يتململ في قلبها وساد وجه حنان شعاع طالما انتظرته وسرحيق وادي حياتها . وأخذت تقص اليه بما حدث لها (والأستاذ كله آذان سامعة لها) وعندما انتهت من سرد قصتها (مشكلتها) ساح الأستاذ بأعلى صوته .

ـ انك فتاتي ياحنان (فأخذت الدهشة ترتسم على وجه حنان) .

ـ انك الفتاة التي قابلتها بالخيال وأنا السبب في عذابها وعليه ان أنقذها من عذابها هذا .. وها هي أنت أصبحت حقيقة ... انك رائعة يا حنان اني قصصي وتعرفين مقدار حب الناس لؤلفاتي فانك سوف تزيدين من شهرتي وسوف اسمي قصتي (القصة الواقعية) وأتمنى أن تضعي بنفسك حلا لهذه القصة ... اني عملت جاهدا على تكفر عن ذنبها وتسير الى خطيبها وتعتذر اليه فهل تقبلين يا حنان رأيي في حل مشكلة هذه الفتاة ؟

افرئي يا حنان وضعي انت نهايتها .. وعليك الا تعطيها لأحد قبل ابهيها ..

ان هذا سر يجب ان تحتفظي به بيني وبينك .

واخذت حنان القصة ولكنها شكرته وفي مساء اليوم التالي اطلعت حنان بسرعة الى دار (الأستاذ الكبير) وهي تحمل معها نهاية مستقبل الفتاة الشقية .

وطرقت الباب وبدون ان تستأذن دخلت عليه وحيته ثم قالت :

ـ استاذي يجب ان تعود .

ـ ولكن من هي ؟

ـ هي أنا ... يجب أن اعود واكفر عن ذنبي تجاه والدي واعتذر لخطيبي .

ـ ماذا تقولين ؟

ـ فتاة قصتك ..

والله لقد نسيت أن أمداعا قد لازمني منذ أمس نعم ياحنان عليها ان تعود وانا بجانبك ... فهيا لاذهب معك لوالدك وخطيبك ولتكفرين عما بدر منك .

وفي تلك اللحظة شغلت هذه الفتاة العابرة فكر (الأستاذ الكبير) وأصبحت حل اهتمامه ...

وعادت حنان الى صديق المخلص الذي ما فارق شبحها طوال مدة تغيبها عنه ورحمت ، ولكنها اعتذرت له على ما بدر منها بدون تفكير وبدون تعطية للحقائق ... ولكنها لم تستطع أن تعبر اليه بكلامها ...

فظهر انها هي التي عبرت عما تريد ان تقوله لهذا الشخص الوفي .

(وهكذا انتهى الربيع وحمل معه سعادة فتاة)